الياس خوري

راشد حسين الغائب الحاضر

واقفٌ كلّي مذلّهْ
في مطارِ القاهرهْ
ليتني كنتُ حبيساً
في سجون الناصرهْ

ربما كان الشاعر راشد حسين الأكثر جدارة بحمل صفة الغائب ـ الحاضر، وهي صفة أطلقها القانون الإسرائيلي على اللاجئين الفلسطينيين الذين بقوا في وطنهم خلف الخط الأخضر، من أجل شرعنة الاستيلاء على أرضهم، وتغييبهم عن وطنهم في وطنهم.

هذه المقالة قراءة في تجربة غياب راشد حسين في حضوره داخل المشهد الشعري والثقافي الفلسطيني. فقد تحولت حياة راشد وشعره إلى مأساة داخل المأساة الفلسطينية، فكان ابن لحظة الاستفاقة من غيبوبة حرب النكبة، وأب الشعر الفلسطيني من دون أن يدري.

أب لأبناء كثيرين من دون أبوة شرعية، وموت غريب لف حياة الفلسطيني الغريب الذي غرّبته النكبة، وشعر يحمل تردد البدايات وهفواتها وجمالياتها كافة.

كما ننشر مختارات من شعره، في هذا العدد الخاص من "مجلة الدراسات الفلسطينية" تحية إلى شاعر كبير وإنسان نبيل، كي تستعيد الذاكرة الفلسطينية جزءاً من ذاكرتها.

كيف نقرأ راشد حسين؟ هل نقرأه كحياة لم تكتمل أم نقرأه كشعر اكتمل بالموت؟

لقائي الأول بهذا الشاعر تم في نيويورك، أخذني الفنان الفلسطيني كمال بلاّطة إلى مقهى في أسفل مانهاتن، وهناك التقينا امرأة أميركية مستديرة الوجه والجسد هي صاحبة مقهى "ذي فيليدج غايت" (The Village Gate).

قال كمال إنها كانت واحدة من أصدقاء راشد حسين، لم أعد أذكر اسم المرأة لكنني أذكر استدارة البياض في وجهها وزرقة عينيها الصغيرتين وشعرها الأشقر. قال كمال إنها يهودية من نيويورك، وإن راشد قدّم في هذا المقهى مع بييت سيغر (Pete Seeger) وبمساعدة أفيدال دلوغوف (Avital D'Lugoff) عرضاً غنائياً شعرياً عن فلسطين، لم يلقَ النجاح.

سألتها عن راشد، فحكت، لكنني لا أذكر من كلامها شيئاً، كنت أحدّق في عينيها وأرى دموعاً زرقاء تنحدر منهما. ربما كان اندهاشي بلون الدموع هو السبب الذي جعلني لا أستمع إلى كلامها أو أفقه منه شيئاً، أو ربما بسبب لهجتها النيويوركية الثقيلة التي بدت لي مستغلقة على الفهم.

مضى كمال بي إلى أعلى الجزيرة، حيث قضى راشد محترقاً بنار سيجارته، بعدما أغفى على إيقاع الفودكا.

التقيت به مرة ثانية في قصيدة محمود درويش: "كان ما سوف يكون"، وهنا رأيت رجلاً يشبه "حقلاً من بطاطا وذرة"، كما كتب درويش في النسخة الأولى من قصيدته، وأخذتني حيرة الاستعارة، كيف يكون الرجل حقلاً من بطاطا أو ذرة؟ ولم أفهم ذلك، إلاّ حين سافرت في رحلتي الطويلة إلى "باب الشمس"، وهناك فهمت أن الفلسطيني لا يشبه إلاّ هذا الحقل الشاسع الذي التجأ إلى العيون، هرباً من المصادرة الإسرائيلية.

كان الأول في الشعر، والأول في الخيبة، والأول في الموت. رحلته من مصمص في المثلث إلى الناصرة إلى تل أبيب إلى نيويورك مروراً ببيروت ودمشق، لخصت زمن الحيرة الفلسطينية، حين كان سؤال الهوية الوطنية هو السؤال الأول، وحين كان الجواب على هذا السؤال لا يعني سوى طرق أبواب المستحيل.

الشمسُ لم تجزعْ لمصرعِه ولا غاب
القمرْ | والأرضُ لا هي زُلزلت أسفاً
ولا نزل المطرْ.

هل كان راشد حسين يكتب عن موته الخفر في نيويورك؟ أم كان يتلاعب بأوتار اليأس كي يصل إلى إيقاعات روحه؟ وكيف صار الفلسطيني الذي يعيش في المثلث شاعراً، وأين عثر على لغته؟

للأدب في فلسطين أكثر من حكاية. لكن الحكايات كلها ذابت في النهاية في تراجيديا استعادة اللغة والذات، والتي وجدت في ثلاث قامات أدبية كبيرة القدرة على بناء سياقاتها: إميل حبيبي عبر شخصيته الكاريزمية وسخريته؛ غسان كنفاني عبر كونه أول من صاغ السؤال الفلسطيني ورسم ملامح الإجابة عليه؛ محمود درويش بعبقريته الشعرية النادرة والاستثنائية التي أهّلته كي يكتب الملحمة الفلسطينية.

نستطيع أن نقرأ راشد حسين في هذا السياق الأدبي المتماسك، ونتحدث عنه بصفته ابن زمن بدايات الشعر الفلسطيني الحديث، وأول مَن طرح إشكالية العلاقة بالأرض التي ستصبح الإشكالية الأساسية في مسار هذا الشعر.

لكن راشد حسين، ككثير من الشعراء، لم

يترك خلفه شعراً فقط، بل صار شعره إطار حكاية يمكن أن تكون أكثر بلاغة وتراجيدية من الشعر نفسه، وتشكل مرآة للزمن الذي عاش فيه الشاعر.

يصلح شعر راشد حسين لأن يشكّل عناوين فرعية في قصة حياة ملأى بالأسى والخيبات والنضال والالتباسات. وسيكون هذا الشعر دليلي إلى محاولة قراءة هذه القصة وتقديم محاولة لعبور مراياها بحثاً عن ملامح صعوبة البدايات ومساراتها الملتوية.

المثلث: حكاية لم تُروَ

ضمّت إسرائيل المثلث في سياق اتفاقية الهدنة الموقّعة بين المملكة الأردنية الهاشمية وإسرائيل، في رودس، ٣ نيسان/ أبريل ١٩٤٩. وهكذا تحوّل سكان أم الفحم وعشرات القرى في المثلثين الجنوبي والشمالي إلى "مواطنين إسرائيليين" بين ليلة وضحاها.

ما عانته قرى المثلث لا يختلف في شيء عن معاناة قرى الجليل، ومعاناة ما تبقّى من المدن الفلسطينية، أي: مصادرة للأراضي؛ تسليط لـ "المتعاونين"، أي العملاء؛ محاولات تسلل اللاجئين التي لا تنتهي؛ حكم عسكري يشلّ قدرة الناس على الحركة، ويرهن لقمة العديدين لمزاجية العملاء وأسيادهم.

في مصمص، وهي قرية صغيرة في المثلث، قرب وادي عارة، وُلد راشد حسين في ٢٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٦. لم تحمل ولادة الشاعر أعباء ثورة ١٩٣٦ ببطولاتها وأحزانها فقط، بل حملت التباس الاسم أيضاً. فراشد ولد تحت اسم آخر هو حاتم، ووالده عُرف باسم أبي حاتم، لكن اسماً آخر لبسه، ليصير شاعراً باسمَين من دون أن يختار أياً منهما.

كتب أوري أفنيري في رثاء راشد حسين بعد موته في نيويورك إن راشداً لم يمت في سنة ١٩٧٧، وإنما قبل هذا التاريخ بعشرين عاماً. وروى كيف استُدعي الشاعر إلى مقر الحاكم العسكري الذي طلب منه أن يكتب قصيدة في ذكرى "استقلال إسرائيل"، وهنا دار حوار ساخن بين الرجلين، هاجم فيه الشاعر الحكم العسكري والاضطهاد الذي يتعرض له سكان البلد الأصليين، وأنهاه رافضاً وهو يقول للحاكم العسكري: "هل تعتقد أنني عاهرة"؟

لكن عندما عاد الشاعر إلى بيته، ورأى كيف ارتسم الهلع والخوف على وجوه أفراد عائلته، وخصوصاً عمّه المختار الذي كان قد أرسله لإكمال دراسته الثانوية في الناصرة، عاد وكتب الأبيات التي طُلبت منه، ووقف واجماً وهو يشاهد كيف ماتت كلماته في شفتيه.

حكاية الفلسطينيين في إسرائيل لها اسم واحد هو مقاومة محاولة قولبة أرواحهم وتدجينها وتعهيرها كي يصبحوا "عرباً صالحين"، بحسب تعبير الباحث الإسرائيلي هليل كوهين. أن تكون صالحاً، أي أن تتعهر عبر التعامل مع العملاء، وتتحول إلى كائن لا هوية له ولا وطن. فأنت لست فلسطينياً لأنهم أطلقوا عليك اسماً جديداً هو العربي ـ الإسرائيلي، وأنت لست إسرائيلياً بشكل كاف لأنك لست يهودياً وتحمل في لغتك وذاكرتك وملامحك سمة الفلسطيني الذي يجب أن يصير لا مرئياً، ويهيم كشبح لا جذور له.

ووصلت مأساة المثلث إلى ذروتها مع مذبحة كفر قاسم، التي جرت خلال العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦، فصارت مدرسة الموت في كفر قاسم مرآة لمدرسة

الموت في دير ياسين. وإذا كان هدف مذبحة دير ياسين في سنة ١٩٤٨ إثارة الذعر من أجل تسريع عملية طرد الفلسطينيين من بلدهم، فإن كفر قاسم كانت علامة الإخضاع بالدم لـ "الأقلية الفلسطينية" في إسرائيل.

صار راشد حسين لاجئاً مرتين: المرة الأولى حين طُردت العائلة من حيفا حيث كانت تقيم، ووجدت ملجأها في قرية مصمص؛ المرة الثانية حين ضُمَّت القرية إلى إسرائيل بعد تنازل الأردن عنها.

عرف الشاعر في المرة الأولى معنى الطرد تحت نيران التطهير العرقي الإسرائيلي، وعرف في المرة الثانية معنى أن يكون الإنسان لاجئاً في وطنه.

لم يكتب راشد حسين مذكراته، ولم أعثر على سيرة متكاملة للشاعر كي أفهم ماذا جرى بالضبط في عملية الانتقال المؤلمة هذه، وكيف صارت العائلة في كنف عمّه المختار، وماذا كانت علاقة المختار بسلطات الاحتلال؟ وكيف تعمل غريزة البقاء على تدوير الزوايا وابتلاع ما لا يمكن ابتلاعه؟

اتخذ راشد حسين صفة الشاعر الجماهيري في ١ أيار / مايو ١٩٥٨ حين ألقى في سينما "الأمبير" في الناصرة قصيدة "من آسيا أنا" أمام حشد جماهيري كبير، وهو يلبس الكوفية الفلسطينية:

من آسيا أنا من بلاد الحب والدم والأماني
بلدِ الرجال الثائرين على مماطلة الزمانِ

كان الشاعر يعمل مدرساً ابتدائياً حين أصدر مجموعته الشعرية الأولى "مع الفجر"، في سنة ١٩٥٧، وافتتحها بقصيدة بعنوان "إلى شاعر يهودي"، تحمل في داخلها كل التباس البدايات وأزقتها الصعبة:

فغداً سنُخرج من حياتينا معاً
دنيا معطرة الموارد مسكرة
قلبي وقلبك نغمتان تنادتا
بلسان عصفور ونغمة قبرة
قل للبنادق إن فهمت حديثها
ماذا صنعت بطفلة متعثرة
لغة المحبة سهلة وحديثها
أجدى وأجمل من حديث مدمرة

زمن الالتباس

لم أجد قصيدة "إلى شاعر يهودي" داخل المجموعة الشعرية الكاملة لراشد حسين. وأغلب الظن أن الناشر وأصدقاء الشاعر أرادوا ألاّ تشوب صورة المناضل والمقاوم القومي أي شائبة توحي بزمن الالتباس الذي عاشه راشد حسين طوال حياته.

واذا كان محمود درويش قد حوّل ريتا، وهي فتاة إسرائيلية، إلى حكاية شعرية تمتد في مجمل شعره وتخترقه بحب مستحيل، فإن راشد حسين لم يكتفِ بحب ريتا شعرياً بل تزوجها. كانت ريتا راشد حسين حقيقية وتدعى آن لافي، وهي يهودية أميركية وزوجة ضابط إسرائيلي، انفصلت عن زوجها بعد علاقة الحب التي ربطتها براشد حسين، ثم "عادت" إلى الولايات المتحدة، لإكمال دراستها، فلحق بها الشاعر وتزوجها.

لا أدري لماذا نخاف الاقتراب من زمن الالتباس الذي عاشه الفلسطينيون بعد صدمة حرب النكبة. فهو لم يكن التباساً في الهوية بقدر ما كان محاولة للتمسك بها عبر البحث عنها. وهو فضلاً عن ذلك يحمل

علامة تفوّق أخلاقي فلسطيني، لأن الأدب الفلسطيني في الوطن والمنفى حمل إشارات إنسانية في تعامله مع الشخصية اليهودية لا نجد معادلاً لها في الأدب الصهيوني. وأنا أُحيل هنا بصورة خاصة إلى روايتَي "عائد الى حيفا" لغسان كنفاني، و"أرابيسك" لأنطون شماس.

كان زمناً مليئاً بالالتباس الثقافي والسياسي. فالصراع السياسي داخل الشعب الفلسطيني في إسرائيل تمحور في صراع طويل ومعقد بين الشيوعيين الذين دعوا إلى الإخاء بين الشعبين على أرضية قبولهم بقرار التقسيم، وناضلوا من أجل المساواة ونزع الطابع العنصري عن الدولة الصهيونية، وبين مجموعات العملاء التي تجسدت في سياسيين تقليديين ومخاتير وزعماء عشائر قرروا تحت ضغط غريزة البقاء و / أو الشهوة إلى النفوذ، الخضوع للشيطان من أجل المحافظة على وجودهم في بلدهم.

وإذا كان صوت الحركة القومية بقي خافتاً، فإنه وجد في حركة "الأرض"، التي تأسست في سنة ١٩٥٩، صوته، وأداة سياسية لم تستطع أن تتبلور بسبب القمع والملاحقة.

أمّا على المستوى الثقافي فالمسألة كانت أكثر تعقيداً. بلد بلا مدن ولا صحافة ولا مسارح. قرى يتكدس فيها الفلاحون الذين صاروا بلا أرض، وشعب يعيش تحت حكم عسكري لا يسمح لأفراده بالسفر من قرية إلى قرية داخل القضاء الواحد.

أين وكيف تستطيع الثقافة أن تتبلور؟

حين أحاول فهم الإنتاج الثقافي الفلسطيني الخصب في الخمسينيات والستينيات أُصاب بالدهشة. فالأعجوبة التي اجترحها هؤلاء الفلاحون الفقراء لا يمكن تفسيرها إلاّ عبر قراءة الثقافة بصفتها جزءاً من غريزة الحياة.

معجزة فلسطينيي ١٩٤٨ هي الثقافة التي أنتجوها وتنفسوها، وصنعوا بها هويتهم الضائعة ووطنهم الممحو.

ولأن هذه المعجزة هي من صناعة البشر، فإنها حملت التباسات زمنها، وتناقضاته، وأسئلته الصعبة.

كي نفهم هذه المعجزة يجب أن نتوقف عند إميل حبيبي وتجربته الصحافية والأدبية في "الاتحاد" و"الجديد"، حيث نجح "جهينة"، وهو الاسم المستعار الذي كان يوقّع به، في أن يهندس حركة أدبية أنتجت شعر محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وآخرين...، وسمحت للمهندس بأن يكتب رائعته "المتشائل".

لم تكن هذه التجربة ثقافية بامتياز إلاّ لأنها كانت سياسية. فقد أخذت شرعيتها من انتمائها الشيوعي، ومن دور الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا في دعم تأسيس الكيان الصهيوني، واحتمت من القمع بالحرب الباردة، وتحولت إلى قناع للهوية القومية العربية الفلسطينية، وخصوصاً بعد انشقاق "ماكي"، وتأسيس "راكاح" الذي تحول إلى صوت الفلسطينيين في إسرائيل من دون أن يفقد عناصر طابعه العربي ـ اليهودي كافة.

كتب راشد حسين أكثر من مرة في "الاتحاد" تحت اسم مستعار هو أبو الياس. لكن أبا الياس كان في مكان آخر، فراشد حسين كان أحد مؤسسي حركة "الأرض"، وكان قومياً وناصرياً، ولم يجد لنفسه مكاناً في الموجة الثقافية الشيوعية:

الله أصبح لاجئاً يا سيدي
صادر إذاً حتى بساط المسجدِ
وبع الكنيسة فهي من أملاكه
وبع المؤذّن في المزاد الأسود

لم ينسَ الشاعر لحظة أنه لاجىء وينتمي إلى شعب من اللاجئين، كما لم ينسَ أن رغيف الخبز الذي يأكله المستوطن هو عصارة دم الفلسطيني.

لكن كيف قاده موقفه القومي إلى "المرصاد" و"الفجر"؟ وهما صحيفتان عربيتان كان يصدرهما حزب "المابام"، وهو حزب صهيوني ماركسي، كان أعضاؤه عصب وحدة البالماح، قبل أن يبدأ رحلة تفككه الطويلة، بسبب المسافة بين قيمه اليسارية وممارساته العنصرية، فضلاً عن نجاح بن ـ غوريون في تهميشه وتحطيمه.

تقول الحكاية إن حكاية راشد حسين مع المناخ الثقافي والسياسي الإسرائيلي كانت أكثر تعقيداً ممّا نعتقد.

حركة الأرض ستتفكك تحت ضربات القمع، ويغادر عدد من قادتها فلسطين إلى دمشق وبيروت، أمّا شاعر الأرض فكان عليه أن ينكتب بأرضه ويتوه فيها لا أن يكتبها فقط:

وتقتربُ الأرض مني | وتشربُ
مني | وتتركُ عندي بساتينها |
لتضحي سلاحاً | يدافعُ عني |
وحتى اذا نمتُ في الحلمِ | تقترب
الأرض مني.

ماذا أخذ مغنّي الأرض في رحلته إلى متاهة العلاقة بالثقافة الإسرائيلية؟

لا أمتلك الجواب عن هذا السؤال سوى عبر محاولة اكتناه جوهر الالتباس الذي عصف بروح الفلسطيني وهو يشاهد كيف صار إسرائيلياً رغماً عنه، ومن دون أن يمتلك أي خيار آخر، أقلّه أن يصبح إسرائيلياً كاملاً، أي مواطناً يتمتع بحقوقه كافة.

سبق أن ذاق أنطون شماس الذي كان أول مَن طرح فكرة الدولة لكل مواطنيها، مرارةَ الجواب العنصري، فالفلسطيني يعيش في "دولة اليهود"، كما سمّاها هرتسيل، وعليه أن يكتفي بفتات مواطنة تحرمه من حقوقه لأنها تتصدّق عليه بالبقاء في أرض آبائه وأجداده!

لم يعش مثقفو "الاتحاد" و"الجديد" هذا التمزق الوجودي بشكل علني، لأنهم احتموا بأممية اليوتوبيا السوفياتية التي غطت هذا المأزق بمأزق آخر كما سيكتشف إميل حبيبي في وقت متأخر، وهذه مسألة تحتاج إلى نقاش خاص.

أمّا راشد حسين فكان في عراء الروح، يعيش تخبّط الالتباس الذي أخذه من الألم إلى الألم.

أقول الالتباس وأنا أعني شيئاً آخر، فعندما اضطرته ظروف عمله الصحافي إلى الإقامة في تل أبيب، ارتطم بالثقافة الإسرائيلية، وبنى مجموعة علاقات ستستمر بشكل أو بآخر حتى وفاته.

الالتباس كان محاولة فتح نافذة ضوء وسط العتمة الإسرائيلية التي عاش فيها الفلسطيني في وطن(هـ) "الجديد" الذي لم يعد له، ولن يصير وطنه.

في سنة ١٩٥٨ عرض حزب المابام على راشد حسين إصدار مجلة "الفجر"، فاضطر الشاعر إلى الانتقال إلى تل أبيب حيث أقام في شارع "ابن غفريول"، في المدينة الإسرائيلية التي ابتلعت يافا، وهناك توثقت علاقاته بيوري أفنيري وعاموس كينان،

وشارك في تنظيم لقاء مع كتّاب يهود وعرب في منزل بنيامين تموز شارك فيه حبيب قهوجي وحنا أبو حنا وعصام عباس وجبرا نقولا إلى جانب أهارون ميجيد وحاييم غوري.

واللافت من قراءة أسماء المشاركين العرب أنها ضمت مختلف التيارات الفلسطينية: الأرض (التي كانت في طور التأسيس) والشيوعيين والتروتسكيين، وأنها كانت إحدى أول محاولات فتح ثغرة للّقاء بين المثقفين الفلسطينيين والمثقفين اليساريين الإسرائيليين.

بين تل أبيب ومقهى خريستو في عكا، حيث كان الشاعر يلقي قصائده، عاش راشد حسين عراء الروح، وخصوصاً بعد القرار الإسرائيلي بمنع حركة الأرض.

في هذا العراء تبلورت شخصيته الشعرية، وتشكلت لغته. فكانت قصيدته إحدى علامات البداية، وكان بذلك أول مَن حمل راية الشعر الفلسطيني بعد الشعراء الفرسان: عبدالرحيم محمود وإبراهيم طوقان وعبدالكريم الكرمي.

كان فارساً في رومانسيته، يطلق القصيدة دفعة واحدة كأنها صرخة تخرج من الأعماق. وتحمل هذه القصيدة سمات التجربة الأولى في عفويتها وبراءتها، وأكاد أقول بساطتها الخلاّقة.

لعب بالشكل الشعري أو ترك هذا الشكل يتلاعب به، كأنه كان يكتب الخاطرة عفو الخاطر. لا أريد أن أقسو على شاعر سحرتني شخصيته وأنا أتعرّف إليها من خلال قصة حياته كما رواها كمال بلاّطة وميرين غصين، في كتابهما الصادر باللغة الإنجليزية بعنوان: "عالم راشد حسين"، ميتشيغان: جمعية الخريجين العرب الأميركيين، ١٩٧٩ (*The world of Rashid Hussein,* Michigan: Association of Arab American University Graduates, 1979).

لكنني أريد أن أتلمس معنى البدايات وهي تصنع أولى أشكالها وإشكالياتها، وتأخذنا إلى الوعي لحظة انفجاره في الكلمات والإيقاع.

كانت اللغة وطن الفلسطينيين المنفيين في وطنهم، فكانت البداية شعراً، وكان هذا الشعر يتشابه إلى حد لا يوصف. تشعر ببدايات درويش والقاسم موجودة في هذا الشعر، كأن القصيدة كانت تتصادى مع القصيدة، وكأن مناخ الرومانسية الواقعية كان أرض الشعر الذي صار اسماً آخر للأرض نفسها.

يكتب الحنين إلى حيفا بلغة طفولية تأخذه إلى طفولته، ثم ينعطف إلى وصف الطبيعة برومانسية تذكّر، ولو من بعيد، برومانسية أبي شبكة:

وترى السماء مع المساء حديقةً من زنبقٍ
والغيمُ منشورٌ على صدرِ السماء الأزرقِ
كقطيفةٍ من مخملٍ صُبغتْ بلونٍ فستقي
بُعثت لصُنع معاطفٍ لزنابقٍ لم تُخلقِ

ما علاقة هذه الرومانسية الجارفة ببنيامين تموز والتيار الكنعاني في الأدب الإسرائيلي؟

أغلب الظن أن الشاعر كان يبحث في هذه العلاقة الملأى بالتناقضات عن موطىء قدم. ومع أنه حافظ حتى اللحظات الأخيرة على علاقته بأوري أفنيري وجريدته الليبرالية، إلاّ إن صلاته الإسرائيلية بدأت تتقطع، وخصوصاً بعدما ضاق المابام ذرعاً بمؤلف ديوان "صواريخ"، فأقفل جريدة "الفجر" في سنة ١٩٦١.

إعراب هزيمتين

في سنة ١٩٦٣، وبينما كان يواصل الكتابة في جريدة "هذا العالَم" ("هعولام هازي")، انكبّ راشد حسين على ترجمة مختارات من شعر حاييم نحمان بيالك ونثره إلى العربية، وهذه الترجمة ستصدر في سنة ١٩٦٦ عن "مكتبة الترجمة في الجامعة العبرية في القدس"، وستنشرها دار "دفار" في تل أبيب. وهكذا سيجد الشاعر القومي الإسرائيلي طريقه إلى لغة الضاد عبر واحد من ألمع شعراء فلسطين في ذلك الزمن.

لكن حكاية راشد حسين ستأخذ مسارات معقدة، وسيكون على صاحب قصيدة "دروس في الإعراب"، الذي عاش في طفولته هزيمة حرب النكبة، أن يقضي ما تبقّى له من حياة قصيرة، في إعراب هزيمتين جديدتين: هزيمته الشخصية في هجرته الأميركية، وهزيمة العرب في ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧.

الهزيمتان امتزجتا بحيث صار الذاتي موضوعياً والموضوعي ذاتياً.

قصة حبّه العاصفة لآن لافي لا نعثر عليها في قصائده، وهذه علامة مأزقها الأول. حب عاصف قاد الشاعر الذي يعيش العزلة في بيئته الثقافية الفلسطينية، وغربته عن الثقافة الإسرائيلية، إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة. وهي هجرة ستدمّر روحه على دفعات، وتُغرقه في الخمر، وتقضي على احتمالاته الإنسانية والشعرية.

لا نعرف قصة الخلاف الذي قاد إلى انفصال العشيقين بعد زواجهما، لكننا نعرف من شهادات أصدقاء الشاعر، أن هذا الانفصال الحزين قاد الشاعر إلى ما يشبه السوداوية اليائسة الناجمة عن العزلة.

أمّا هزيمة حزيران / يونيو فقادته إلى مسالك العالم العربي الوعرة. جاء إلى بيروت فلم يستطع الاستقرار في مركز الأبحاث، ثم ذهب إلى دمشق كي يعمل مع رفيقه في حركة الأرض حبيب قهوجي في مركز أبحاث عن إسرائيل أسسه قهوجي هناك، ثم عمل في الإذاعة السورية خلال حرب تشرين / أكتوبر ١٩٧٣، ليجد نفسه مطروداً من عاصمة الأمويين، ومرحّلاً على أول طائرة إلى الولايات المتحدة.

"في نيويورك لم يعد راشد الرجل نفسه الذي عرفته في الوطن، صارت عيناه أشبه بنافذتين مفتوحتين على العدم"، كما كتب فوزي الأسمر.

عينان مفتوحتان على العدم، وشعر مكتوب بيد مرتجفة من القهر والوحدة والشعور بالإحباط والفشل، وشاعر يتهدى بحيطان نيويورك العالية، كي يجد طريقه وسط ضباب الخمر، ويأس الروح.

يداه اللتان كانتا تصنعان أفضل طبق مجدرة في نيويورك، صارتا عاجزتين عن القبض على عالم يهرب، فهذا الفلاح الفلسطيني لم يستطع أن ينفصل عن أرضه، وحين شعر بأن الأرض ضاقت به، هاجر إلى موته.

تعيشُ في نيويورك | تكتبُ شعراً
حينما تجوعْ | أو حينما يموتُ
الأصدقاءْ | وأصدقاؤك انتهوا |
ماتوا يغازلون دولاراتهم | ماتوا بلا
أسماءْ | لذا تظلُ تكتبُ الشعرَ | تموتُ
بالشعرِ | في مدينة بدون أصدقاءْ

يوم الخميس في ١ شباط / فبراير ١٩٧٧، وُجد راشد حسين ميتاً في شقته في مانهاتن. كان شاباً في الواحدة والأربعين، سمرته تتلألأ في عينيه المغمضتين على دخان

سيجارته الذي أشعل فرشة سريره ببطء، فمات اختناقاً.

ابن فلاحين من ضلع فلسطين |
جنوبيٌّ |شقيّ مثل دوريّ | قويّ |
فاتحُ الصوت | كبير القدمين | واسع
الكفِّ، فقير كفراشة | أسمرٌ حتى
التداعي | وعريض المنكبين

هكذا وصفه محمود درويش في رثائيته "كان ما سوف يكون"، وهكذا تشكلت صورة راشد حسين، كنبيّ بلا نبوة نبت في المثلث الفلسطيني، وعبر منه إلى موته، بصمت وكبرياء.

كان لا بد من هذا الموت، كي يكتمل إعراب الهزيمتين، وكي تكون الحكاية أجمل من روايتها، وأكثر بلاغة من رواتها.

لا يحب الفلسطينيون استخدام كلمة "ضحية" ويفضلون كلمة "شهيد". لذا نجد أن العديد من الكتابات ألصقت صفة شهيد على راشد حسين.

لكن في حياة راشد حسين وموته، في شعره ونتاجه الثقافي، اكتملت صورة الضحية في الذاكرة الفلسطينية، هذا هو "درس الإعراب" الأخير الذي ألقاه علينا الشاعر قبل أن يموت.

إنه ابن الحكاية وبطلها، تدثّر بالحكاية ومات كما يموت أبطال الحكايات. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية ـ ٢)

الصناعات الأمنية الإسرائيلية

الوظيفة الاستراتيجية والاقتصادية

إشراف وتحرير
أحمد خليفة

١٠٤ صفحات ٥ دولارات